ندوة تجديد الخطاب الديني

الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونصلي ونسلّم على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ونسلم تسليمًا كثيرًا.

ثم أمَّا بعد،

فحين شرفني الأزهر لأكون بين المتحدثين في هذه الندوة المباركة وفي هذا الموضوع الخطير في " التجديد في الفكر والعلوم الإسلامية " فزعت إلى كتاب الله.

أولا: لمعرفة هدايته في هذا المجال فوجدت آيات عديدة تدعو الإنسان إلى التفكر في آيات الله (جلّ شأنه) وآلاءه وخلقه وآياته، وتنبه إلى أنّ هناك أداة للتفكّر مودعة في هذا الإنسان ومختصة به فهو يجيلها بحسب نظر العقل الذي آتاه الله (جلّ شأنه) إيَّاه، وبثت آيات الحث على التفكير في أدلة القرآن على وجود الملك الديّان فجاءت في دليل الخلق ودليل العناية ودليل الإبداع وسائر أدلة الله (جلّ شأنه) في كتابه على وجوده ووحدانيّته، ونهجت النهج ذاته سُنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التي دارت حول القرآن تعلمنا آياته وتقودنا إلى استنباط حكمه ومعرفة أحكامه وتأخذ بأيدينا إلى بيان ما أودعه الله فينا من قوى تدل على وجود الله ووحدانيته وتفرده باستحقاق الحمد والشكر والألوهيّة وسائر صفات الكمال وانتفاء سائر صفات النقصان عنه وتنبه آيات الكتاب الكريم وما صحّ من سُنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه إلى ضرورة المعرفة للإنسان وحاجته الماسة إليها وإلى تحويلها إلى ثقافة وحضارة.

وقد اشتمل الكتاب الكريم فيما اشتمل عليه على منهج الفكر ومنهج للمعرفة بأنواعها، فإذا انتقلنا إلى الواقع نجد انقسامًا فكريًا ومعرفيًا وثقافيًا بين البشر فإذا أردنا أن نختصر ذلك بالثنائيّة الأهم بالنسبة لنا ألا وهي: "ثنائيّة الفكر الإسلاميّ والفكر الغربيّ" فنجد أن الفكر الإسلاميّ قد أعطاه القرآن المجيد منذ نزول "أقرأ" على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قدرة على "الجمع بين القراءتين" و"التفكر في الوحيين" فهو يحب الخير ويكره الشر، وإذا أفل أو ضعف فقد يندفع إلى التقليد أو قد يستبد به الطغيان ويفرض عليه موقفًا معّينًا أما الفكر الغربيّ فإنّه منذ نشأته كان الحس يغلب عليه من يوم "عبادة العجل الذهبي" فنجد فيه عناية بالغة بالوزن والكم وكلما علا شأن الوزن والكم فيه فإنه يقوده إلى مزيد من الماديّة لتصبح انحرافًا ومغالاة؛ ولذلك فإنّ الأفكار يمكن تقسيمها بمقتضى هذه الثنائية إلى أفكار "مثالية ونماذج أوليّة" في ثقافة مجتمع مّا وقد تستمد من ذلك ما يجعلها عصية على التغيير بطول الأمد ولو قست القلوب. ويمكن أن نقول: إنّ عالم الأفكار الإسلاميّ يتسم ببعض هذه السمات. وهناك أفكار موضوعة يضعها الإنسان يعدّل بها على الأفكار المطبوعة، وغالبًا ما تكون هذه الأفكار فعّالة ولكنّها مستوردة وعندما تستبدل الأمّة أفكارها المطبوعة بأفكار أخرى موضوعة فالأفكار المطبوعة كأنّها كائن حيٌّ يشعر بالخذلان وبالهجر والتخلي فيحدث عندها رد فعل، وتبدأ تعمل عمل الخلايا السرطانيّة لتنتقم لنفسها فيصبح سلوك الفرد غير منسجم مع أفكاره المطبوعة الأساسية.

مصادر الورقة:

ثم استعنت بكتاب صغير كان مطورًا عن محاضرة ألقيتها قبل أربعين عامًا على مجموعة من الشباب العربيّ المسلم الذي كان يدرس في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وهو يحمل عنوان "الأزمة الفكريّة تشخيص ومقترحات علاج" كما استعنت بكتابي "أم القرى" و "طبائع الاستبداد" للسيد عبد الرحمن الكواكبي ثم "مشكلة الأفكار" و "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" للسيد مالك ابن نبي ثم برسالة ماجستير بعنوان "الخطاب العربي المعاصر"

للسيد فادي اسماعيل وهو أديب واعلامي لبناني أخذ فيه مجموعة من المفاهيم المطروحة في النهضة والتقدم وعالج فيه سؤال النهضة الذي طرحه شكيب أرسلان بكتابه المعروف: "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم" وهو كتاب تشرفت بالتقديم له ونشره في إطار مطبوعات "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" وختمت بكتاب آخر لي "إصلاح الفكر الإسلاميّ مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلاميّ المعاصر" وبعد ذلك نظرت في كتاب المواقف للإيجي وشروحه، حيث شرح الإيجي "النظر" وعرّفه: بأنّه ترتيب مقدمات للوصول إلى نتائج وشرح ذلك شرحًا مسهباً مطولا لا يستغني باحثٌ عنه، و "النظر" عندي وجه متميز من وجوه الفكر.

لقد تلقى المسلمون رسالة الله (جلّ شانه) في كتاب أنزله على قلب نبيّه وأوحاه إليه وأمر النبيّ الكريم بتلاوته على معاصريه وتعليمهم ما أُنزل على قلبه واستنباط الحكم والأحكام منه وتعليمها لذلك الجيل وتزكيتهم وتطهيرهم بها وتفعيلها في حياتهم وحذّرهم كل التحذير من أنّ ينحرفوا عنه أو ينصرفوا أو يهجروا ذلك الوحي وضرب لهم أمثالًا لعل أبرزها: مثال من سبقهم من بني اسرائيل الذين نزّل الله عليهم الكتاب "التوراة" هدى ورحمة فانحرفوا عنه وحملوه حمل المنحرفين لا حمل الناس الأسوياء العادلين فكانوا مثل الحمار يحمل أسفارًا لا ينتفع بها وقد يرهقه حملها وثقلها على ظهوره، فقد حذر الله (جلّ شأنه) هذه الأمة من هجر هذا الكتاب والانصراف عنه لكنها بطول الأمد وقسوة القلوب وقعت في هذه الخطيئة ومجتمعاتنا المسلمة اليوم تدفع ضريبة ذلك الهجر فالأفكار التي علّمها القرآن ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذه الأمُّة جرى هجرها وخيانتها فتحولت إلى حالة انتقام من أولئك الذين خانوا تلك الأفكار السليمة فجعل المسلم ينشطر اليوم إلى شطرين ويتحول وكأنّه شخصان يعاني من حالة فصام الشخصيّة فهو مسلم قد يصلي في المسجد ويقوم بواجباته الدينيّة فإذا خرج من المسجد إلى السوق وميادين العمل غرق في عالم آخر.

إنّ الأمُّة المسلمة لم تتوقف عن إنتاج الأفكار بعد جيل التلقي لكن الفرق كبير بين أفكار ولدت في عصر الأفول والتراجع الحضاريّ ولم تكن صالحة للتطبيق لا في عصورها ولا في عصورنا هذه. وأفكار عصور الانحطاط والأفول أفكار بعدت عن مصدر تكوينها الموحى المنزّل على قلب نبيّ الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي أفكار ولدت ميتة ومازالت التراكمات على هذه الأفكار جارية بالاستيراد من هنا وهناك وهي أفكار ميتة ومميتة كأفكار الجبر والتقليد والابتداع والأفكار الاسرائيليّة وهذه الأفكار تفعل في المجتمع مثل ما تفعل الخلايا السرطانيّة في الجسم الصحيح فهي أفكار مميتة حتى لو أنها كانت في بيئة أخرى حيّة فاعلة؛ ولقد أحصى صاحب "أم القرى"مائة وثمانين فكرة أصليّة وفرعيّة يمكن إدراجها جميعًا تحت الأفكار الميتة والمميتة وهي أشدّ فتكًا في مجتمعاتنا من أفتك الأمراض، فمشكلة أمتّنا اليوم مشكلة أفكار وأزمتها الأم أزمة فكريّة وعالمنا الإسلاميّ يواجه منذ بداية انحطاطه مشكلة أفكار لا مشكلة وسائل فمشكلاتنا داخليّة قبل أن تكون خارجيّة ومشكلة الأفكار تنعكس ولابد على الأشخاص والأشياء، والأفكار تدخل في صراع مع الأشخاص ومع الأشياء. والأفكار ذات علاقة وثيقة بكل أطراف ومكونات المجتمعات والسياسة والأفكار وازدواجيّة اللغة؛ ولذلك فإنّها تجعل حياة الإنسان في عوالم ثلاثة: عالم الأشياء والأشخاص والأفكار. والتدافع أو الصراع يقوم بين هذه العوالم الثلاث فإذا تفوق أحدهما على الأخرين تبعًا للفرد ولنموذج المجتمع الذي يعيش فيه فإنّه يطبعه بطابعه.

يقصد "بعالم الأفكار" مجموعة المعتقدات والمسلمات والتصورات والمبادئ والنماذج والمناهج التي تحتويها عقول مجتمع ما في لحظة تاريخيّة ما،ويدخل في هذا المجال أنماط التفكير والقيم والمشاعر والأحاسيس.

أما "عالم الأشخاص" فيقصد به "مجموعة العلاقات والنظم والاتصالات التي تنظم حياة الأشخاص الذين يكونون ذلك المجتمع فيما بينهم".

أما "عالم الأشياء" فهو "كل ما ينتجه مجتمع من مدن وقرى وزراعة وصناعة ومؤسسات وغير ذلك من المنتجات والخدمات الملموسة المحسوسة".

وحين يطغى عالم الأشياء تتحول القيم من الكيفيّة إلى الكميّة فيحل الشيء محل الفكرة فتطرح الحلول الزائفة لمشكلات حيويّة، وهذه الحالة هي الحالة التي يعيشها عالم المسلمين اليوم هي "مشكلة أو أزمة طغيان الأشياء على الأفكار"، أما إذا طغى الأشخاص﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾(العلق:6-7) فإن الطاغية يجسد المثل الأعلى في شخصه.

﴿..مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي.. ﴾ (القصص: 38)

﴿.. أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (النازعات:24)

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ..﴾ (الزخرف: 54)

وهنا يصبح الشخص وثنًا.

والمستعمر الأجنبي يفضل التعامل مع الوثن؛ لأنه أيسر وأسهل وأقل تكلفة من التعامل مع الفكرة، ومجتمعاتنا المسلمة اليوم تشهد تداخلًا بين طغيان الأشياء وطغيان الأشخاص على الأفكار فإذا أضيف إلى ذلك أننّا نعيش في مرحلة ما بعد الأفول الحضاريّ الإسلاميّ فسندرك الهوة السحيقة التي نحن فيها والانحراف البالغ حين أوهمنا أنفسنا أننّا في حاجة إلى الوسائل والأشياء فلم نعد نلقي بالاً للأفكار فتظهر الأزمة في المجالات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وشعوبنا أحوج ما تكون أن تفهم مشكلاتها على حقيقتها وتتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ هذه البداية المباركة من الأزهر الشريف تقع في بداية خط الانطلاق.